بسم الله الرحمن الرحيم

مؤسسة آل البيت الملكية للفكر الإسلامي

المؤتمر العام الرابع عشر

٢٢- ٢٥ شعبان ١٤٢٨هـ/ ٤- ٧ أيلول ٢٠٠٧م

الحب في القرآن الكريم

الأستاذ الدكتور هشام نشّابة

عمّان - المملكة الأردنية الهاشمية

الحب في القرآن الكريم[1]

أ.د. هشام نشّابة

يحلو لدارسي تاريخ الحضارات، كما لفلاسفة التاريخ عموماً، أن يسِموا الحضارات بسِماتٍ يرون أنها طغت عليها فطبعتها بخصائص مميزة. وقد يكون في هذا المنحى الفكري، شيءٌ من التعسف أو الاستسلام لهوى الدارس أو المؤرّخ. فكل حضارة تتضمن العديد من السمات والخصائص بحيث يصعب تغليب سمة منها على أخرى. فإذا قيل، مثلاً، إن الحضارة اليونانية تميّزت بالفكر الفلسفي (الحكمة)، وحضارة الرومان بالتنظيم الإداري، والحضارة العربية الإسلامية بالعدل، والحضارة الغربية الحديثة بالتكنولوجيا وهكذا ... فغالباً ما نقصد بذلك أن الحضارة اليونانية القديمة قد أنتجت أفلاطون وأرسطو وغيرهما من الفلاسفة الذين أثروا الفكر الفلسفي الإنساني عبر العصور، وأن الرومان قد وضعوا قوانين إدارية كان لها أثرها البارز في تاريخ التشريع، وأن العرب والمسلمين قد وضعوا نظاماً للحكم مبنيّاً على الشريعة الإسلامية السمحاء التي جعلت العدل أساس الدولة، وأن الحضارة الغربية المعاصرة قد سخرت للتقدم التكنولوجي جلّ طاقاتها.

غير أن هذه الحضارات جميعاً قد حوت إلى جانب ما اخترنا أن نخصّها به من مميزات صفات أخرى جليلة الشأن، ولكنها لم تحظ منا بالعناية الكافية، أو أنها لم تلفت نظر دارسي التاريخ وفلاسفته، أو لم تستجب لأهوائهم، فلم يروّجوا لها، ولذلك بقيت كامنة تنتظر من يسلّط عليها الأضواء.

(١) يلاحظ القارئ الكريم أنني لم أضع لهذا البحث الهوامش اللازمة، ولم أذكر المراجع والمصادر، وسأضيف كل ذلك قبل النشر إن شاء الله.

وقد روَّج الإعلام – المرئي والمسموع والمقروء – في عصرنا الحاضر صوراً عن الحضارات في العالم الحديث والمعاصر، بل عن البلدان المختلفة، أصبحت نمطيةً عن الشعوب والأمم، ويكمن فيها، أحياناً كثيرة، غبنٌ واضحٌ لهذه الشعوب والأمم. من ذلك ما تروّجه الأفلام السينمائية عن العرب والمسلمين بأنهم شعوب متخلّفة تهوى العنف والاقتتال والاستبداد، والفساد. وآخر ما يُروَّج عنهم هو الإرهاب. حتى أنه لا تذكر كلمة "عربي" أو "مسلم" إلاّ وتتبادر إلى أذهان بعض الناس، خاصة في الغرب، صورة "الإرهابي".

ونحن في زمن بات الرأي العام فيه ذا تأثير بالغ على صاحب القرار، فضلاً عن الإنسان العادي؛ لذلك فإن لهذه الصورة النمطية التي يبثها الإعلام أثراً بعيداً يتفاوت قوة أو ضعفاً وفقاً لدرجة العلم أو الميل أو المصلحة.

ولو أن أحدنا فتح المواقع الإلكترونية التي تتحدث عن "الحب في الإسلام" و "الحب في القرآن الكريم" لوجد مئات المقالات، وأكثرها بالإنكليزية، وهي مليئة بالاتهامات التي تصور الإسلام والقرآن الكريم بصورة مخجلة، مما يستدعي الردود التي تكيل الصاع صاعين. وإنك تجد هذه الردود أيضاً على المواقع الإلكترونية ذاتها. والمحصلة أن هذا الجدال – "وبالتي هي أسوأ" أحياناً – خلافاً لتعاليم القرآن الكريم، ولا يزيد القارئ الواعي إلاّ تنكّراً لهذه المواقف المتطرفة، البعيدة عن العلم والمليئة بالحقد والبغضاء.

لذلك، يبدو أن الحديث عن الحب في القرآن الكريم في يومنا هذا يتضمن إحساساً بأن الصورة النمطية عن الإسلام هي صورة مشوّهة تولّد العداوة والبغضاء، ولا تساعد أبداً على بناء عالم يسوده الوفاق والاتفاق، واحترام الآخر، والاعتراف بحقه في الاختلاف.

ولن أدخل في صحة التصنيف للحب والمحبة في سلم القيم في المسيحية والإسلام، ولا في مدى التأثير العملي للحب والمحبة في سياسات الدول أو في تصرفات المجتمعات في هذه الدول، فهذا أمر يخرج

عن نطاق هذا البحث. غير أن ثمة واقعاً يجب أن يستدعي الاهتمام هو أن المؤرخين عموماً، والمؤرخين الغربيين خصوصاً، عبر العصور قد حرصوا على تصوير التاريخ كما لو أنه سلسلة من المعارك والحروب، أو قل إنهم وجدوا أن تدريس التاريخ على هذا الأساس هو الأجدر بالدول والمجتمعات المتحضّرة. إن التاريخ هو من هذا المنظور قصّة غالب ومغلوب، ومسيطِر ومُسيطَر عليه، وقاهر ومقهور، أو هو صراع مستميت من أجل الغلبة والسيطرة والقهر. بل الأخطر من ذلك، أن مفاهيم "التقدم" في هذه النظرة إلى التاريخ، يحددها الغالب والمسيطِر بغض النظر عن القيم الأخلاقية التي جاءت بها الأديان السماوية.

وما من شك أن المجتمعات الإسلامية الحديثة، تحت تأثير الاتجاه الغربي في كتابة التاريخ للتدريس في المدارس والجامعات، قد نحوا المنحى الغربي في كتابة التاريخ وتدريسه فأصبحت أكثر كتب التاريخ رواجاً تلك التي تتمحور على الحروب والمعارك. فإذا وصلنا إلى العصور الحديثة التي تزخر بالانكسارات والهزائم في البلاد الإسلامية، لا بالانتصارات، حوّلنا الأنظار عن الحاضر المؤلم إلى انتصارات الماضي وبطولاته الحربية في ساحات المعارك، وذلك في محاولة لتصوير الحاضر على أنه مرحلة لا بد أن تعقبها انتصارات حربية باهرة في المستقبل. وهكذا يبقى التاريخُ تاريخَ حروب تعقبها فترة استعداد لحروب جديدة... ويستمر "الصراع"، صراع الدول، والشعوب والحضارات، وتستمر مع هذا الصراع الدامي ويلات الإنسانية على يد الإنسان.

إن التاريخ كما أرّخه الغربيون، والتاريخ الحديث للعالم منذ سيطر عليه الفكر الغربي لا يساعد أبداً على وضع قيَم الحب والمحبة في مرتبة عالية في سلّم القيَم. وإن إبعاد القيم الدينية عن التأثير في السياسة لا يسهم في جعل قيم الحب والمحبة والعدل والتسامح والشفقة سائدة في المجتمعات. والمعضلة الكبرى في المجتمعات اليوم هي في إعادة الاعتبار لهذه القيَم في المجتمعات الحديثة بحيث تصبح البطولات

التي يمجدها التاريخ وتعتز بها الشعوب هي البطولات التي تتحقق في ميادين القيم، لا تلك التي تتحقق فقط في ساحات القتال.

وإنني أدرك أن هذا الموقف المبدئي من التاريخ ومن الحضارة قد يعتبر موقفاً انهزامياً في المرحلة التي تمر بها الأمة العربية اليوم، نظراً للعنف المستشري والظلم المتمادي الذي تتعرض له، والضعف النسبي للأمة في ميدان القوة العسكرية. كما أدرك أن مثل هذا الموقف لا يمكن أن يثمر في المدى القريب خاصة إذا تبنّاه الأضعف في المعركة التي تدور رحاها في يومنا هذا، ولذلك أسارع إلى التأكيد أن هذا الموقف هو موقف مبدئي لا أمل له بالتطبيق العملي إلاّ إذا انضوت تحت لوائه جميع القوى الفاعلة في المجتمع الدولي، أو أكثرها. أو إذا تبنّته الحركات الشعبية التي تقود المجتمع المدني.

ومن الواجب الاعتراف أن بعض المسلمين منذ العمل الإرهابي المشين الذي أصاب مركز التجارة العالمي في الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ وحتى اليوم، يسهمون بمثل هذه الأعمال في طمس معاني الحب والمحبة في تاريخهم. علماً بأن الأعمال الإرهابية ليست من الإسلام في شيء، وإنما الإرهاب هو ظاهرة في جميع المجتمعات المعاصرة لا بد أن تدرس وتحلل أسبابها وتوضع الخطط التي تحول دون نشوئها وتفاقمها.

ولو أن من شوّه صورة الإسلام كانوا فقط تلك الجماعات الإرهابية التي أدانها المسلمون قاطبة، لهان الأمر نوعاً ما، ولكن الواقع أن الدارسين للتاريخ الإسلامي، وخاصة المحدَثين منهم، قد أسهموا أيضاً، من حيث لا يقصدون، في إعطاء هذه الصورة النمطية الظالمة التي تبعد حضارة الإسلام والمسلمين عن مفاهيم الحب والمحبة.

فالمؤرخون للتاريخ الإسلامي، وبعض المحدثين منهم بخاصة شأنهم في ذلك شأن غيرهم من المؤرخين في العالم، بنوا دراساتهم للتاريخ على أساس التأريخ للحروب والمعارك، وكأنما التاريخ كله

اقتتال، والبطولات كلها لا تكتسب إلاّ في ساحات الوعي، وأن فترات السلم هي للاستعداد لجولات ومعارك جديدة. لذلك قال الفيلسوف Hegel في تحليله للتاريخ: "نظرتُ إلى الماضي فلم أرَ فيه إلاّ الدمار"، وقال توينبي Toynbee: "إن التاريخ سلسلة من التحديات بين الحضارات، كل واحدة تتحدى الأخرى وتسعى للغلبة والانتصار عليها". وكذلك مقولات Huntington وFukuyama، فإنها تندرج في هذا السياق لدراسة التاريخ وفلسفته.

هذه النظرة إلى التاريخ تشجع على الاقتتال، وهي لا تليق بمجتمعات تدعي التقدم والرقي، وحب السلام. وهي نظرة بدائية في الأساس لأن الإنسان البدائي وحدَه هو الذي يمجّد القوة الجسدية فوق سائر قواه العقلية والروحية، ويضع القوة المادية في أعلى المراتب. وما ينطبق على الأفراد ينطبق على الأمم والشعوب والدول. والأمة التي لا تستطيع أن تعتز إلاّ بقوتها المادية وإنجازاتها في المعارك الحربية تسقط من الميزان عندما توزن الأمم بقيمتها الحقيقية. وإن العرب والمسلمين وإن كان تاريخهم يزخر بالبطولات الحربية والفتوحات الباهرة، سوى أن هذا التاريخ يعتز أولاً بما تضمنه من قيم وأخلاق وما تحقق فيه من "بطولات" على صعيد القيم الحضارية والإنسانية أكثر بكثير مما يعتز ببطولاته الحربية. ولو لم تكن المعارك الحربية التي خاضها المسلمون هي من أجل القيم والأخلاق لما كان لها وزن يستحق الذكر، بل لعلها اعتُبرت، عندئذٍ، كغيرها من الحروب التي خاضتها الشعوب البدائية في أوروبا وأميركا في القرون الوسطى وحروب التتار والمغول في آسيا.

لذلك، فإن البحث في "الحب في القرآن الكريم" هو بحث في القيم الحضارية في الإسلام، وهو – استطراداً – بحث في الأخلاق التي يدعو الإسلامُ الناسَ إلى التخلّق بها، كسباً لمرضاة الله عز وجل وعملاً بأوامره ونواهيه من جهة، وتأسيساً لحضارة إنسانية مبنية على القيم لا على الغلبة والقهر والظلم.

* * *

والقرآن الكريم كلام الله تعالى الموحى به إلى محمد ﷺ ليبلغه للناس كافة. وهو كلام موحى بلغةٍ يفهمها الناس، ليتدبروا آياته، أي ليعملوا بمقتضاها.

وحسْبُ المسلمَ القرآن الكريم ليتعرف إلى الله عز وجل. ولكن القرآن الكريم إذْ يصف الله بصفات عديدة، حاول العلماء أن يعدّوها فما لبثوا أن أدركوا أنها لا تعدّ ولا تحصى، وأن هذه الصفات ليست شبيهة بما يطلقونه من صفات على البشر، وأن الله ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ (الشورى:١١)، وصفاته عز وجلّ مطلقة، بينما ما يقابلها من صفات البشر نسبية، وشتان بين الإلهي المطلق، والبشري النسبي. بل إن أقصى ما يتوق إليه الإنسان هو السعي للتخلُّق بأخلاق الله بالمعيار الإنساني، لأن الإنسان لا يستطيع أن يخرج عن طبيعته. وإن سعيَ الإنسان للتخلُّق بأخلاق الله هو تعبُّد، أو عبادة. فالله هو المعبود والإنسان هو العابد له عن طريق العقيدة والشريعة اللتين أنعمهما الله على عباده. يقول الله عزّ وجلّ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات:٥٦).

* * *

إن في القرآن الكريم مواضيع كثيرة ذكر فيها أن الله تعالى يحب وأنه لا يحبّ. وفي محاولة سطحية لفهم ما يحبه الله تعالى، وما لا يحب، وما يكره، أحصى البعض من الدارسين عدد المرات التي ذكر فيها الحب في القرآن الكريم، وعدد المرات التي ذُكِر ذلك في الإنجيل، فوجد أن عدد المرات التي ذكر فيها الحب في القرآن أقل منه في الإنجيل، فقال إن الحب في الإنجيل أعظم شأناً منه في القرآن الكريم. وكأنما المسألة هي مسألة أرقام.

ولكن الله سبحانه قد "أنعم" على الناس، أولاً، بأنه خلقهم من ذكرٍ وأنثى، ثم ميّزهم على سائر مخلوقاته و"كرّمهم"، وسخّر لهم ما في الكون، وأعطاهم العقل والسمع والبصر، وجعلهم في "أحسن

تقويم"، ثم "هداهم النجدين" و"الصراط المستقيم" . ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ (إبراهيم:٣٤) . ثم وعدهم الجنة حيث "يجزون الجزاء الأوفى ..." . هذه الرعاية الإلهية في الدنيا والآخرة هي ما خصّ بها الله سبحانه مخلوقاته، وخصّ بها الإنسان تمييزاً له وتكريماً . أليست هذه النعم الإلهية أجل من المفهوم السطحي للحب الذي يُحسب بالعدد والأرقام ؟ ؟

إن نعمه سبحانه وتعالى على الناس إذ خلقهم وهداهم و﴿ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ (المجادلة: ٢٢)، وجزاهم في الدنيا والآخرة هو التعبير الأسمى لعلاقة الله جلّ جلاله بالإنسان . أما حب الناس لله تعالى، فهو تقدير وشكر لله على هذه النعم، وحبهم لمحمد ﷺ اقتداءٌ به .

وإن ربط محبة الله بنعمه على مخلوقاته هو الذي شغل المسلمين في حديثهم عن الحب باعتباره من صفات الله عزّ وجل، وميزة يجب أن يتميّز بها الإنسان في علاقته بالله وبرسوله وبالناس كافة . وكما جاء في الحديث النبوي الشريف: "الناس عيال الله وأحبهم إليه أنفعهم لعياله" .

أما المتصوفة فقد ذهبوا إلى أبعد من هذا، فتحدثوا عن العشق الذي يرمز إلى توق العاشق للفناء في المعشوق . وإن للمتصوفة، وقد عرفوا الله من القرآن الكريم وسنة نبيّه ﷺ، ومن البيئة الإسلامية، جولات وصولات في حب الله لمخلوقاته، وحبهم له سبحانه .

* * *

ويبدو أن الإسلام قد أكّد على حبّ الإنسان لله ومخلوقاته والناس كافة، أكثر من تأكيده على حبّ الله الذي هو شأنه سبحانه . والله أعلم .

أخيراً، يخطئ مَن يحاول أن يرى في الإسلام صورة للتعاليم اللاهوتية المسيحية . فإن اتفق معها رضوا عنه، وإن لم يتفق نقموا عليه . وهو ما يفعله المتشددون المسيحيون عندما يقولون بأن الإسلام لا يقول "إن الله محبة" .

ولو صدقت الدعوات للاعتراف بالآخر وقبول اختلافه، بل والفرح بهذا الاختلاف، ولو صحّت الرغبة في التفاهم لا في التناحر، لاعتبر الدارسون أن عدل الله سبحانه، ومحاسبته للإنسان على ما يفعل، خيراً كان أو شراً، وجه رفيع من أوجه الحب في القرآن الكريم، لأن المحبّ يحاسب ويجزي ويعاقب. وهو إلى جانب كل ذلك يُحسِن بعد عدله: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ** ﴾ (النحل:٩٠)، وهو سبحانه يتقبل التوبة، و ﴿ **يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا** ﴾ (الزمر:٥٣). وقبول التوبة والغفران من أعظم مظاهر الحب في الإسلام كما في المسيحية.

نسأل الله التوفيق والسداد، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.